أصلي أردوغان وجه مشرق في الرواية التركية الشابة

الحياة - 04/11/07//

أصلي أردوغان

تصدر بالعربية عن دار قدمس (دمشق) الرواية الأولى للكاتبة التركية الشابة أصلي اردوغان وعنوانها «المدينة ذات العباءة الحمراء»، هنا بورتريه للكاتبة الشابة.

اختارت مجلة «لير» الفرنسية قبل أشهر خمسين كاتباً من أنحاء العالم، متوقعة لهم أن يتبوّؤا صدارة الرواية العالمية، في القرن الحادي والعشرين، مفترضةً ضمناً أن نوع الرواية سيحافظ على تألقه في المئة سنة المقبلة، وهو رهان ينطوي على مخاطرة، على ضوء التشاؤم السائد حول مستقبل الرواية. ومن هؤلاء الكتّاب، الروائية التركية أصلي أردوغان التي بدأت بنشر أعمالها قبل بلوغها الثلاثين، وشهد نتاجها الإبداعي صعوداً لافتاً. وإذا كانت أعمالها الأولى لم تلق الرواج الكبير ولا الترحاب المرجو لدى النقاد، فهي استقطبت كبير الاهتمام، بعد روايتها الثالثة «المدينة ذات العباءة الحمراء» التي كرستها روائيةً تمتلك أدواتها ورؤيتها الخاصة، وترجمت إلى عدد من اللغات الأوروبية. أما قصتها «طيور من خشب» ففازت بالجائزة الأولى في مسابقة للقصة في ألمانيا. فمن هي أصلي أردوغان، وما الجديد الذي أضافته الى فن الرواية في الأدب التركي؟

ولدت أردوغان في العام 1967، في اسطنبول، وتخرجت من إحدى جامعاتها في قسم هندسة الكومبيوتر، ثم تخصصت في دراسة الفيزياء والفيزياء الذرية في جامعات سويسرا والبرازيل. ريو دي جانيرو التي أمضت فيها عامين، ستكون بطلة روايتها «المدينة ذات العباءة الحمراء». بعد عودتها إلى تركيا، تفرغت للكتابة فأصدرت ثلاث روايات (الرجل القشرة، الماندرين المعجزة، المدينة ذات العباءة الحمراء)، وكتاباً يتضمن نصوصاً نثرية حار النقاد في تصنيفها، وهو بعنوان «في صمت الحياة»، فضلاً عن كتابين جمعت فيهما مقالاتها التي نشرتها في الصحافة.

وإذا كان من الجائز الحديث عن العالم الروائي لكاتبة يمكن اعتبارها في بداية مسيرتها الإبداعية، فعالم أردوغان الروائي يتمحور أساساً حول قيمة الحياة، في عالم شديد القسوة يحيلها إلى قيمة فرعية هي البقاء على قيد الحياة. في روايتها الأبرز «المدينة ذات العباءة الحمراء» يحضر الموت بكثافة وقوة مخيفتين، ومعه الخوف من الموت، الرعب الذي يشل الإرادة من رصاصة قد تأتي في أي لحظة وتنهي حياة الكائن بسخافة وبساطة. في بيئة من هذا النوع، يصبح البقاء على قيد الحياة قيمة مطلقة ومهمة صعبة، تضفيان على الحياة معنى وجمالاً.

بطلتان

البطلة الأولى للرواية، مدينة ريو دي جانيرو، بقيظها الذي لا يطاق، وبؤس سكانها، وعصابات مهربي المخدرات الذين «يعلنون» عن توفر بضاعتهم بإطلاق النار في الهواء فيما يشبه الألعاب النارية الاحتفالية التي تضيء سماء الليل. تلك العصابات التي تصفي الحسابات في ما بينها في الشوارع قتلاً، في بيئة من الفلتان الأمني وغياب الدولة. فإذا أضفنا إلى ذلك البؤساء الذين يسلبون المارة ما بحوزتهم من نقود تحت تهديد السلاح، أو أولئك الذين يموتون جوعاً، يصبح الموت (ونقيضه الملازم: الحياة) البطل الثاني للرواية.

أما البطلة الثالثة فهي الراوية: فتاة تركية تعيش في ريو بصورة موقتة، منقطعة عن أهلها في اسطنبول، تتلقى من أمها، مرة كل بضعة أشهر، اتصالاً هاتفياً لا يغنيها في شيء. وهي تكتب رواية لـ «تصفي حسابها مع هذه المدينة»، فبغير ذلك لن تستطيع إخراجها من حياتها قبل أن تغادرها عائدةً إلى بلادها. فكرت كثيراً قبل أن تجد اسماً لبطلة روايتها، إلى أن وجدته في اسم «أوزغور» وهي كلمة تركية تعني (الحر، الحرة). هذا ليس اسماً اعتباطاً. فلدينا فتاة بلغت أقصى درجات الحرية، بخروجها، مرة واحدة، من بيئتها الأسرية والوطنية معاً، إلى عالم جديد عليها كل الجدة. وهي في منتهى الوحدة، ليس لديها أي علاقات تكبلها. الوجه الآخر للحرية المطلقة، إذاً، هي الوحدة المطلقة. في ليالي كرنفال ريو دي جانيرو الذي يقصده السياح من أنحاء العالم، وهي ترقص بين آلاف الأجساد المتلاصقة، غائبة تقريباً عن الوعي، تشعر البطلة بأقصى درجات الوحدة، فلا تطيق ذلك، وتلقي بجسدها في أحضان أول رجل تتعثر به، من غير أن ترى وجهه بوضوح.

تبدو لنا بطلة الرواية في ثلاثة وجوه متداخلة، فلا نميز، أحياناً ما إذا كانت «أوزغور» بطلة الرواية التي تكتب داخل الرواية، أم الفتاة التركية التي تكتبها، أم المؤلفة أصلي أردوغان نفسها. ذلك أن هذه الأخيرة عاشت في ريو فعلاً، كما أسلفنا، لكن الرواية لم تسقط في فخ المذكرات الشخصية، بل تمكنت أردوغان، ببراعة تسجل لها، من أن تستنبط مما هو ذاتي، قصةً تتمتع بالقيمة العامة. وفي عودة إلى فكرة الوحدة القاتلة للروح، مع أنها صنو الحرية المطلقة، تقدم لنا أردوغان هذه المعادلة اللافتة: في مكالمة مطولة مع أمها، تسألها هذه الأخيرة إن كانت في حاجة لشيء. فترد بطلة الرواية بصمت طويل تفكر في غضونه هكذا: «لم أقل لها إنه على رغم افتقادي كل شيء، من الأمان إلى النقود، فإن الشيء الوحيد الذي أحتاجه بشدة، هو شخص يسألني هذا السؤال». تقيم البطلة عدداً من العلاقات مع الرجال، لكنها لا تمنحها الإحساس بالأمان، بل تخرج من كل علاقة بجراح جديدة لن تندمل، وبإذلال مخيف.

لعل الجديد البارز في هذه الرواية هو في نظرة البطلة التركية إلى هذه البلاد «الأخرى». فهي تعبر بوضوح بأنها تنتمي إلى «العالم القديم» مهد الحضارة الإنسانية، في حين أن هذه البلاد «جديدة» وبدائية في معنى من المعاني. إنها تعكس، بعبارة أخرى، نظرة «الرجل الأبيض» المتمحورة على «المركز» إلى الآخر «المحيطي». لكنها ضعيفة أمام هذا الاختلاف الحضاري، ووحيدة ويتملكها الرعب.

لغة أردوغان سلسة وغنية تتدفق بعذوبة مدهشة، ربما عابتها قليلاً كثرة التشبيهات. بناؤها الفني متماسك، يخبرك عن كاتبة متمكنة من عملها. تتنقل بين الراوية والرواية التي تكتب داخلها بسلاسة، فيتقبل القارىء انتقالاتها المفاجئة بين ضميري المتكلم والغائب بلا عناء.